النحو كانت قراءة هذه التحليلات تحتاج الىٰ شيء غير قليل من التأمل والمراجعة . وكان من الواضح إلى حد ما أن طه يتأمل فى هذه المطولة معنيا بما يسميه فى بعض حديثه باسم الجمال الحر ، ولكنه لايتعقب هذا الجمال تعقبا نظريا أو صريحا ، وإنما يلم بفكرته إلماما ، فإذا نحن قرأنا هذه اللغة الأدبية التى يؤدى بها آراءه فى المطولة عادت إلى أذهاننا فكرة الجمال الحر أو صورة الإنسان الذى يتحرر من القيد والضرورة والخطوب والأحداث . ونستطيع أن نجد فى هذا كله آثار الفرح المعتدل ، فقد اختلفت على الدار أحداث كثيرة ، وخلت من أهلها كما خلت من آثارهم ومتاعهم ، ولم يبق فيها إلا الرسوم الضئيلة النحيلة ، واختلفت عليها الريح ، وألمت بها العواصف والأنواء ، وأصابها المطر الخفيف والمطر الغزير ، والرعد يقصف فى جوها إذا كان العشى ، ثم تنجلى عنها أحداث الجو ، وقد ألقت إليها الخصب ، وأشاعت فيها الحياة ، وأثارت فيها النبت ، وجعلتها مرتعا للظباء والبقر ومأوى للوحش . ويمضى طه فى هذا كله فيشير الى أن الوحش قد أنس حيث لم يكن له أن يأنس منذ أعوام ، ثم يشير إلى مايحتاج إليه الشاعر من الروية والرشد ، وماكان من آثار الخيام فى الدار . تلك الآثار التى لم يبق منها إلا القليل كأنه بقايا النقش وقد محاه أو كاد يمحوه طول العهد ، أو كأنه رجع وشم ، وقد أخذت الواشمة تعيده وتجدده على اليد . وهذه السماء الملحة على هذه الدار بالمطر الهادىء والمطر القوى والرعد حينا ، والمطر فى غير رعد حينا آخر ، وهذا النبات الذى يثور فإذا الأرض تنشق عنه ، وإذا هو يمضى فى ثورته حتى يرتفع ، وهذه الحياة التى تنبث فى الأرض فإذا هى نبات كلها ، وإذا الوحش يجد فيها مأمنا ومرتعا وفراغا للحنان والعناية بالأطفال .

هذا الحديث كله يوحى الى القارىء بصوت الشاعر أو مايسميه طه فى مكان آخر من حديثه عن هذه المطولة باسم النفس القوية العالية السمحة الوديعة . وليس فى هذه الديار ـ كما نرى فى ظاهر الأمر ـ إلا آثار ضئيلة تشبه النقش أو الوشم الذى تجدده الواشمة ، ولكن طه يستأنى على عادته فى العبارة حين يعبر عن السماء الملحة والمطر الهادىء ، والمطر القوى ، والرعد حينا ، والمطر فى غير رعد حينا آخر ، ثم النبات الذى تنشق عنه الأرض ويرتفع ثائرا ، وحياة الوحش . كل هذا قد مسه طه مسا رفيقا بجناح من الحرية والشعور بالجمال ، وجعل منه آية من آيات الانسان الذى اعتدلت نفسه ، وأضفى على الدار بعد أن خلت من أهلها معالم الأنس والأمن والحرية . وأصر طه على أن يلفتنا فى إيجاز شديد إلى أن هذه الأحداث كلها تصور نوعا من السماحة